جدل الأخلاق و السياسة في الفلسفة السياسية الألمانية
كانت و نتشه نموذجين

بن علي محمد[1].

مدخل: لم يسبق للسياسة عبر التأريخ أن ابتعدت عن الأخلاق بالدرجة التي عليها الآن، فإنساننا المعاصر يعيش في غابة شرسة، يتصارع فيها الجميع مع الجميع، ومن يحاول أن ينأى بنفسه عن الصراع، عليه الرضا بأن يكون هو الضحية لا وسطية، فإما أن تكون مفترِسا، أو مفترَسا،هكذايحدثنا واقعنا المريع .

إن "نيتشه" لم يبعث من جديد، فيصور لنا العالم غابة شرسة أو ظلمة مكفهرة، لكن عالمنا هو الذي يصرخ بنا، بل يصفعنا بوقائعه المريرة التي نشاهدها كل يوم، لقد كانت "الفلسفة السياسية" فلسفة أخلاق بالدرجة الأساس. كما أن السياسة كانت فن قاعدته الأخلاق. فقد جاءت "السياسة" في رسالة "أرسطو" (حول الحكومة) كقسم تال . مباشرة . لل "الأخلاق" (وكأنه . بهذا . يشير إلى شدة التلازم بينهما) فلم يفصل "أرسطو" . كما نفعل نحن الآن . بين السياسي والأخلاقي تتضح قوة الترابط بين السياسة والأخلاق عند أرسطو، هكذا وبعد أن بدأت السياسة ملازمة للأخلاق، وصلنا الآن إلى مرحلة يعتبر فيها . عمليا . المعيار الأخلاقي عيب من عيوب السياسي المعاصر، من يلتزم به يعتبر سياسي فاشل، أصبح منطق الربح والخسارة . فقط . هو الذي يحكم عمل معظم محترفي السياسة المعاصرين، دون أي دور حقيقي للمبادئ والأخلاق والشعور الإنساني، فالتضاد والتضارب في مواقفهم، والتغير في تحالفاتهم، والتشتت في ولاءاتهم، أصبح نهجا متأصلا ، فلئن كانوا على استعداد للتهالك، وإراقة ماء الوجه، والتذلل، والاستجداء؛ فهم على استعداد . أيضا . لأن يجسدوا الظلم والقسوة والقمع بأبشع الصور، هكذا و من اجل تسليط الضوء أكثر حول هده الإشكالية سوف نعمد إلي مناقشة نموذجين داخل الفلسفة السياسية الألمانية، نموذج امانويل كانط الذي بنى مشروعه الفلسفي على الأخلاق في مقابل نموذج نتشه ،الذي أقام فلسفة تجافي منذ البداية كل الاعتبارات الأخلاقية، ولا ترى النفع في شيء أكثر مما تراه في القوة، وفق التساؤلات التالية:

– لماذا نزع كانط منزعا أخلاقيا في فلسفته السّياسية؟

– لماذا شنّ نتشهّ هجومه اللاّذع على أخلاقيات عصره و استبعد كل غاية أخلاقية من وراء أفعالنا؟

أولا : كانط : وحدة القانون الأخلاقي مع القانون السياسي

إن مشروع كانط البارز في باب السياسة هو لاشك مشروعه للسلام الدائم الذي يتطرق فيه لشروط السلام، إنه مشروع يتسق مع مذهبه ككل سواء في نظرية المعرفة أو في الأخلاق، ولا يمكن أبدا فهمه بمعزل عن

1– أستاذ مساعد ب معهد العلوم الاجتماعية الإنسانية المركز الجامعي غليزان .

المبادئ التي قررها، في ذلك المنحنى الذي رسمه للعقل ضمن مؤلفاته – نقد العقل المحض، نقد العقل العملي، وتأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ليصل انطلاق من فكرته حول العقل إلى مستوى التنظيم السياسي .

إن كانط ونظرا للظروف السياسية التي عايشتها أوربا، وويلات الحروب الدامية، حاول أن يضع حدا للتشتت، والفرقة – مشروع انتقد من أجله أداء الكنيسة " لأن قيمة الكنائس في نظره تكون بمقدار ما تعاون الجنس البشري على التطور والرقي الأخلاقي"[2] أما إذا تحولت المعتقدات إلى مجموعة من المراسيم والطقوس ...وعلق الناس أهمية بالغة عليها، وفضلوها على الناحية الخلقية التي جاء بها الدين ، فإن هذا يعني انتهاء أمر الدين وزواله "كما انتقد طبقة الكهان والقساوسة الذين غيّبوا المسيحية الأصلية، الأمر الذي جعل الإعراض عن الدين يبلغ الحضيض، خاصة بعدما أصبحت الكنيسة أداة طيعة في يد الحكومة وأصبح رجال الدين الذين- يقضي عليهم واجبهم تخفيف ويلات الإنسانية ، ونكباتها، أدوات ظلم سياسي.

الوحدة بين السياسي والأخلاقي من خلال مشروع السلام العالمي :

يقرّ كانط من أول وهلة، النزاع بين الفرد والمجتمع، على اعتبار أن ذلك وسيلة طبيعية لاستمرار الحياة " إذا لو كان جميع الناس اجتماعيين بطبعهم، ويملون للنزعة الاجتماعية ، لأدى ذلك إلى جمود همة الإنسان وركود نشاطه"[3] لابد من مزيج بين النزعة الفردية والمنافسة لتساعد في بقاء البشر وتطورهم... فلولا ما لدى الناس من نزعات وصفات فردية، وعزوفهم عن الحياة الاجتماعية ... لعاشوا عيشة بسيطة يعمّها السرور والسعادة والانسجام...ولكن هذا النمط من المعيشة يخنق المواهب ويقضي عليها في مهدها،من هذا المنطلق لا يعتبر كانت النزاع من أجل البقاء شرا، رغم سن القوانين، وتنظيم الأحكام، وتقييد الحريات، إن هذه النزعة الفردية هي أصل نواة المجتمع،وهي السبب كذلك الذي يدعو الحكومات إلى التمسك بحريتها الكاملة في تعاملها مع الغير، وهذا بسبب توقع كل دولة الظلم من الدول الأخرى، لكن كانت يرى من خلال مشروعه، أنه حان الوقت للدخول في اتفاقيات لحفظ السلام والحد من العنف والخصام .

إن المشروع الكانطي يحاول أن يشرع للعالم قانون سلام عالمي يجسد انتصار الإرادة الخيرة على الأنانية وحب الذات، بحيث يرفض سلام القوي على الضعيف أو كل نية مبيتة لجعل حالة السلام مطية الربح الوقت، استعداد للحرب فأي معاهدة " من معاهدات السلام لا تعدو معاهدة إذا انطوت نية عاقديها على أمر من شأنه إثارة الحرب من جديد،[4] " يحاول كانت هنا أن يعطي لمشرعه الدعامة الأخلاقية على اعتبار أنه " لا يمكن أن يكون هناك نزاع بين السياسة من حيث هي ممارسة للقانون (الحق) وبين الأخلاق من حيث هي نظرية للقانون (الحق) ، وتبعا لذلك لا يوجد نزاع بين النظرية والعمل، اللهم إلا إذا فهمنا من الأخلاق نظرية عامة في الفطنة،

---

[2] ديورانت ول- قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف ، بيروت، لبنان ط6 [ب ت] ، ص 356.

[3] المرجع نفسه ، ص 361.

[4] كانت إيمانويل ، مشروع للسلام الدائم ، ترجمة عثمان أمين ، مكتبة لأنجلو مصرية، القاهرة ، ط1 ، 1952 ،ص 26.

أي نظرية للقواعد التي تبين أنجع الوسائل لتأمين المصلحة الشخصية "[5] لكن هذا معناه إنكار وجود الأخلاق عامة.

لقد أدرك كانط منذ البداية صعوبة تنفيذ مشروعه، مادام السياسي يعتقد أنه متعال عن المعرفة والفضيلة، من منطلق أن السياسة فن الممكن، الذي لا تقيده أية قيمة ، بحجة أن الطبيعة الإنسانية عن تحقيق فكرة الخير يفرضها العقل، "وهؤلاء السياسيون الماهرون، لا يستغلون علما عمليا يتفاخرون به، بل ممارسات عملية حين لا يفكرون إلا في التضحية بمصلحة الشعب، وبالعالم كله إن أمكن " إن هذه النوعية من السياسيين لها من المهارة والتملق، ما يجعلها صالحة لكل شيء وفي كل الظروف المخالفة للحق، بحيث يجعلون كل إصلاح إجراء مستحيل، ويجعلون من انتهاك الحق أمرا دائما مستغلين السفسطات والأغاليط التالية :

1-افعل واعتذر.

2-إذا فعلت فأنكر ما دبرت أنت .

3- فرق تسد(فرق وسيطر).

إن كانط وأمام هذا الوضع أدرك أن السياسة تقتل كل مشروع للسلام عندما تتنصل من كل قانون أخلاقي، ومن هنا راح يطرح مشروعا فلسفيا للسلام، رابطا فيه بين رأيته الأخلاقية، وفلسفية السياسية، لكن السلام الكانطي الذي بشر به لا يمكن تحقيقه إلا بما يلي:

1-نبذ السلام المؤقت:

فلا بد من شجب كل نية مبيتة لجعل أي خاتمة للحرب، مجرد استعداد للحرب، لأنه في هذه الحالة نحن أمام حالة ترقب وليس حالة سلم.

2- " إن أية دولة مستقلة لا يجوز أن تملكها أية دولة أخرى، بطريقة الميراث أو التبادل، أو الشراء، أو آلهة، فليست الدولة متاعا "[6].

3- إلغاء الجيوش الدائمة:

لأن وجودها يمثل هاجسا قويا يعكس الاستعداد الدائم للحرب.

4- إلغاء القروض الربوية :

حتى وإن كان ذلك من أجل مصالح خارجية للدولة، لأن هذه القروض قد تتيح للقارض إمكانية التدخل في الشؤون الداخلية للدولة المقترضة.

5- لا يجوز لأي دولة أن تتدخل في نظام أو حكم، دولة أخرى، مهما كانت مسوغاته.

6- نبذ الحرب اللاأخلاقية :

---

[5] بدوي عبد الرحمان ، كانط فلسفة القانون والسياسة، وكالة المطبوعات، الكويت [ب ط]، 1976 ، ص247.

[6] كانط إيمانويل ، مشروع للسلام الدائم ، ص 29.

بحيث لا يجوز لدولة في حالة حرب مع دولة أخرى أن تقوم بأعمال عدوانية من شأنها أن تجعل من المستحيل عودة الثقة المتبادلة بينهما، حين عودة السلم، مثل الاغتيال وأدس السم...

إن هذه الميكانزمات التي يطرح من خلالها مشروعه، تعتبر آليات للحد من الحرب في ظل وضع متأزم آنذاك-ولا يزال- لكن وكأن كانت اكتشف أنها غير كافية لإحلال السلم الدائم، ولهذا أتبع كل مادة من المواد السابقة (التمهيدية)، بثلاث ضمانات نهائية تصوغ الشروط الايجابية العامة، الداخلية والخارجية، لفائدة السلام في إطاره العالمي وهي على النحو التالي :

2- النظام: جمهوري

لقد كانت المادة الأولى من مشروع السلام الدائم تنص على أن تكون الدستور المدني لكل دولة، دستورا جمهوريا، وهذا حتى يشارك الشعب في صناعة القرار ويستفتى في كل الأمور خاصة ما تعلق منها بالحرب.

لقد انطلق كانط مزهو بانتصار الثورة الفرنسية 1795، يبشر بانتصار النظام الجمهوري في كل أنحاء أوربا آملا القضاء على الرّق، والعبودية والاستغلال، من هذا المنظور تغدو وظيفة الدولة،إتاحة الفرصة للفرد للتعبير عن طاقاته ومواهبه، لأن احترام الفرد واجب لذاته وإنها جريمة ضد كرامة الفرد كإنسان، أن تقوم الحكومة باستخدامه كوسيلة لتحقيق مطامعها في الخارج، يقول كانت .

غير أن كانت المتحمس للحكم الجمهوري، لا يولي عناية كبيرة للديمقراطية، من منطلق أن خطر الديمقراطية يكمن في تحول الإرادة العامة، إلى إرادة فرد مستبد بالأغلبية،ولهذا فإن الديمقراطيات، حسب كانت، لا تفضي إلا إلى الطغيان، والاستبداد لأنها تسلم حقوق الجماعة للفرد، ومن ثمة تعطيه الحجة للتعسف في استعمال السلطة وقمع الحريات .

ب- القانون الدولي يجب أن يؤسس على اتحاد فدرالي بين الدول الحرة :

إن فكرة الحلف كما نادى بها كانط فكرة قديمة، مورست بشكل أو بآخر في الحضارات السابقة (حلف الفضول مثلا)، لكن الجديد الذي أضافه كانط إليها يكمن في محافظة كل دولة على هويتها وحريتها، وفي تبني النظام الذي ينسجم مع ثقافتها الذي ينسجم مع ثقافتها، دون أن تذوب تحت حكم واحد لأنه لو تم ذلك لانطوت الفكرة على تناقض، إذ أن كل دولة تفترض وجود علاقة بين حاكم ومحكوم، فلو انضوت شعوب عديدة تحت لواء واحد، لأصبحت شعبا واحدا وهذا مخالف لمبدأ المحافظة على الهوية.

ج- حقوق الأجانب :

في هذه النقطة يلتفت كانت إلى مساءلة كثيرا ما كانت السبب في إثارة القلاقل ، وإشعال فتيل الحرب بين الدول، من منطلق أن إهانة الأجنبي خارج دولته يعني بطريقة غير مباشرة الحط من قيمة دولته، وعليه يرى كانت أنه من واجب الدول احترام الأجانب، ماداموا على أراضيها والغاية من ذلك تحقيق أهم الروابط المعنوية للسلام العالمي .

تلك هي الشروط التي يؤسس عليها كانت رؤية لدوام السلم، وهي بطبيعة الحال رؤية تتماشى مع مفهومه للطبيعة البشرية الفاضلة بالقوة، لكن هذا لاينسينا أن السلام الكوني، قبل أن تجسده الاتفاقيات أو القوانين الدولية الردعية، يحتاج إلى التزامات معنوية أخلاقية ، تنمي روح الإيمان به كمطلب إنساني ولعل هذا ما دفع كانت إلى رصد أهم الضمانات الكفيلة بتحقيق هذا المطلب وهي على النحو التالي:

2- الضمان الأخلاقي:

يعترف كانت أن قيمته كإنسان تتجلى في القانون الأخلاقي، الذي يؤمن به، لأن الفعل البشري لابد أن يحكمه الواجب الذي قيمته في ذاته، باعتباره مطابقا للمبدأ العقلي نفسه، وبما أن الواجب العقلي يكاد يكون مبدءا عاما لجميع الناس، فإن الالتزام به يحقق الغاية من وجوده، أي السعادة الإنسانية، رغم أن الواجب الكانطي يتعالى على كل أساسي نفعي.

إن كانط يرفض الوهم السياسي الذي ينطلق مما تقول السياسة "كونوا فطنين مثل الأفاعي "، وهذا من اجل تبرير كل شرور السياسة وتصبح الأخلاق عندئذ مجرد نظرية في الأحكام والقواعد لاختيار أنسب الوسائل لتحقيق أغراضنا، وهكذا فمادامت السياسة ممارسة للقانون، الذي يعتبر الأخلاق إطاره النظري، فلا مجال للإدعاء بأنه هناك نزاع بين السياسة والأخلاق، ولا مجال للتعايش بين القول "كونوا فطنين مثل الأفاعي، " والقول " بغير مخادعة مثل الحمائم " ([6])، لأن العبارتين تتجهان نحو التأسيس للفصل بين ما هو سياسي وما هو أخلاقي الأمر، الذي من شأنه أن يقوّض مشروع السلام العالمي.

2- الضمان الدستوري:

إن بلوغ أفضل دستور-، حسب كانت- لا يكون إلا " بالاقتراب من القانون الطبيعي كنموذج مثالي " يصوغه العقل " فالطبيعة سخرت مثل هذا النظام بالرغم من أنانية الأفراد ،التي تعوق قيام مثل هكذا نظام،وعليه يكفي لإنشاء دولة، وتنظيم أفراد الشعب- على الرغم من اختلاف سلوكياتهم، واستعداداتهم المتعارضة- الخضوع لقوانين قاهرة بما يكفل الحرية، على اعتبار ألاّ حرية بدون قوانين، ولا حرية عندما يكون أي شخص فوق القانون، والشعب الحر بطبعة يطيع، لكنه لا يخدم لديه قضاة، لكن ليس به سادة، وهو لا يطيع سوى القوانين، من هنا تغدو الحرية جزء لا يتجزأ من ماهية الإنسان".

إن القانون يجب أن يعدّ مقدسا للإنسان مهما كلف ذلك السلطة الحاكمة من تضحيات جسام...ويجب على كل سياسة أن تحني ركبتيها أما الحق (القانون) لأن السياسة الحقة في نظر كانت، لايستطيع أن تخطو خطوة واحدة ، قبل أن تحترم الأخلاق، وعلى الرغم من أن السياسة في ذاتها فن عسير، فإن اتحادها مع الأخلاق ليس فنا أبدا، لأن الأخلاق بمقدورها حل ما يستعصى على السياسة من مشاكل فور وقوع الخلاف بينهما .

لكن رغم ما تحقق من أمنيات كانت خاصة ما تعلق بإقامة هيئة دولية تتولى المحافظة على السلام (عصبة الأمم 1919 وهيئة الأمم 1945) يبقى السلام الدائم مثلا أعلى يصعب تحقيقه في ظل تنامي مطالع الدول

الكبرى التي أصبحت اليوم تسيطر على كل الهيئات الدولية السياسية والمالية في مقابل بقاء الدول الضعيفة تحت رحمة القروض وإعادة جدولتها، لهذا تصبح ديمومة السلام فكرة ظرفية على أمل تجسيدها في الواقع .

لكن الفكر السياسي- الألماني منه على وجه الخصوص- وبعد أن تدثرت عناصره، برداء من الميتافيزيقا المتأثرة بالحركة الرومنتيكية، بدأ شيئا فشيئا ينزع عنه أطوار الغموض والمثالية، ويستبدلها بأسلوب واضح وصريح أقرب إلى الأرض منه إلى السماء، هكذا وبعد أن استأنس الناس بأفكار كانط التي حلقت بهم في سماء القانون الأخلاقي الموجه لكل ممارسة سياسية، استيقظوا على رد عنيف يقوض دعائم المشروع الكانطي الذي تولفت من خلاله السياسة بالأخلاق، حيث كانت البداية مع ترتشكي TREITSCHKE (1834-1896) الذي رد بطريقة أو بأخرى على مشروع السلام الدائم ، الذي أرسى دعائمه كانط، إذ أنه يذهب من أول وهلة إلى اعتبار الدولة " قوة" وظيفتها الأولى تقوم على الحرب " فالقوة هي المبدأ الذي تقوم عليه الدولة كما أن الإيمان هو المبدأ الذي تقوم عليه الكنيسة"[7]

يحاول ترشيكي في موقفه من الحرب والسلم أن يقيم ميزانا يزن به أعمال الدولة في ضوء القانون الأخلاقي، دون أن ينسى الأسس التي تقوم عليها الدول، ويكاد يوجه قيم أخلاقية للتلاؤم مع تلك الأسس، إننا هنا ولاشك أمام أحد أفراد سلالة ميكيافلي فهو الذي أقرّ بوضوح ولأول مرة أن " الدولة قوة"، وأعلن " أن الدولة يجب أن تتابع قوتها كهدفها الوحيد، فما هو صالح لذلك الغرض يعد ملائما " عندما يحدد ترتشكي موقفه من هذه الفلسفة يرى بأنها " هي الحقيقة، ومن لم تبلغ به الرجولة مبلغا يواجه هذه الحقيقة ينبغي عليه أن يرفع يديه من السياسة "[8] هي إذا فلسفة القوة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فلسفة أقيضت البشرية من حلم جميل عاشته ولو في مخيلتها – إنها الفلسفة التي وجدت في نتشه بعد ذلك ممثلها البارز فهو ومن دون التفات ينادي " الضعفاء العجزة يجب أن يفنوا، هذا أول مبدأ من مبادئ حبنا للإنسانية !!! ويجب أن يساعدوا على هذا الفناء !!! أي الرذائل أشد ضررا ؟ الشفقة على الضعفاء العاجزين"، هذه إذا مقدمات فلسفية تجافي منذ البداية كل الاعتبارات الأخلاقية، ولا ترى النفع في شيء أكثر مما تراه في القوة- على اعتبار أن هذا المفهوم سيفهم فهما سياسيا حتى ولو.. لأنه لا يوجد نظام مستقل للظواهر السياسية- وعليه فإن لديه توريطات على صعيد التحليل السياسي،وفي علاقته بالتقديرات الأخلاقية، ولهذا سوف نعرض للفكر السياسي النتشوي ، بغرض العثور على إجابات أكثر استعابا لموقفه اللاذع من الأخلاق ، متسائلين في الوقت ذاته، عن العلاقة القائمة بين مفهوم إرادة القوة والطريقة التي يعبر بها عن نفسه على الصعيد السياسي ؟

ثانيا :نتشه : القوة بمعزل عن الأخلاق

في كتابات نتشه الأخلاقية نلمس حملة شعواء ، مركزة على الأخلاق مصحوبة بنقد عنيف لثقافة القرن 19م، حيث يلخص ذلك في كلمة " العدمية الأوربية"، وهذا راجع كما يقول نتشه إلى أن الأوربي العامي في

---

[7] المصدر نفسه ، ص 362.

[8] د. عبد المعز نصر محمد- في النظريات والنظم السياسية، دار النهضة العربية (لم يذكر البلد)، [ب ط] 1981، ص 108.

أيامنا هذه يمجد ويعظم صفاته الضعيفة كالرقة والمساواة والاعتدال والشفقة، وأنه لطيف وصبور، ونافع للمجتمع "،ومن هنا يحمل نتشه على كل الأحكام الأخلاقية التي أصدرتها الإنسانية مبينا الينابيع التي استقيت منها هذه الأحكام، فاضحا الأوهام التي وقعت فيها الإنسانية ليصل من هذه الحملة إلى تفحص أخلاق عصره ، فيجدها مطبوعة بطابع الزهد الديني الذي كرسته- حسب رأيه المسيحية- بدعوتها إلى تمجيد الحياة الآجلة، في مقابل التنكر للحياة العاجلة، التي هي الحياة الحقة، إن المسيحية تؤكد على عقيدة الخطيئة، وتأمر بالتفكير عنها بالصبر والتسليم والطاعة والانصياع ، لهذا كله رفض نتشه، المسيحية سبب طابعها الرعاعي، ومن جراء القيم الشعبية التي تسودها[9] والتي يستغلها القساوسة والرهبان ليحتفظوا بسيادتهم على جمهور المساكين، إنّ هذه الأخلاق كما يقول نتشه " تطلب من الإنسان أن يميت نزعاته الحيوية، وذلك شيء مستحيل ومخالف للطبيعة الإنسانية، كما تطلب منه أن يسلك مسلكا عقليا خالصا، مع أن هذا مطلب صعب، فوق طاقة الإنسان، وضد طبعه الحيوي.

1-نظرية الأخلاق :

أما عندما يقوم باستعراض تاريخ الأخلاق فيقول " في أثناء رحلاتي التي قمت بها خلال أنواع الأخلاق الرفيعة أو الوضيعة التي سادت العالم، والتي لازالت تسوده حتى اليوم ، لاحظت وجود عدة صفات معينة مقرونة بعضها ببعض، وظهرت دائما في وقت واحد، حتى أنني استطعت أن اكتشف وجود نوعين من الأخلاق : أخلاق للسادة، وأخرى للعبيد ...وذلك لأنّ تحديد القيم الأخلاقية قام به إمّا جنس السادة المسيطرين... أو قام بهذا التمديد جماعة الأتباع والرعية، والعبيد المنحطين..." [10].

إن أخلاقية الأسياد نابعة من تجاوز كل اعتبار للتضاد القائم بين الصالح والطالح، إنها وقبل كل شيء أخلاق الفضائل الحربية، التي يجد فيها الإنسان المستعلي نفسه بين أقرانه ولكنها تحتقر في نفس الوقت جماعة الطبقة الدنيا، وجميع الذين يفكرون تفكيرا منحطا، والأمر مختلف فيما يتصل بأخلاقية العبيد، التي تمجد كل ما يجعل الحياة محتملة بالنسبة للجميع كالتآخي ومحبة السلام..

تاريخيا تبدأ أخلاق السادة مع العصر اليوناني الروماني-هنا يظهر نتشه كغيره محكوم بالمركزية الأوربية- حيث كان الإنسان القديم يشعر بنشوة كبرى، وفرحة عظيم ، بارتكاب أشد أعمال البطش والقسوة، ويشعر بنشوة كبرى وفرحة عظمى، بارتكاب أشد أعمال البطش والقسوة،ويشعر بسعادة كبرى لا يضاهيها شيء عندما يشاهد مناظر صراع الثيران، وغيرها من المآسي، هكذا تعدو الفضائل الشريرة التي يتميز بها الأقوياء ضرورة للمجتمع، فالقسوة والعنف والخطر والحرب لها قيمتها العظيمة، فأعظم الرجال لا يظهرون إلا في أوقات الخطر- وربما هذا ما يفسر إعجابه ببابليون- لينتهي كل هذا المجد بانتصار أخلاق العبيد وهنا يؤكد نتشه أن تمرد العبيد بدأ لأول مرة مع الشعب اليهودي، ثم فرضت هذه الأخلاق نفسها في المسيحية- وهكذا اجتاحت أخلاق الضعف والسلام والأمن، وهي أخلاق الطبقات المحكومة والمغلوبة على أمرها- أخلاق الأسياد حيث المخاطرة والقوة،

---

[9] المرجع نفسه، ص،

[10] فنك أويغن ، فلسفة نتشه ، ترجمة إلياس بدوي ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق [ب ط]، 1974 ،ص 150.

فحل المكر مكان القوة، والشفقة مكان العنف والتقليد محل الابتكار وصوت الضمير محل الشرف والكبرياء، ومن هنا يحمل نتشه على الأديان معتبرا إياها منبع أخلاق الطبقات الضعيفة ومقياسا للأخلاق العامة، حيث أصبح العزوف عن الدنيا مقياس الفضيلة، وبهذا المنظور سوف يفسر تاريخ أوربا منذ 18 قرنا، تاريخ سمته الأساسية " إفساد العرق الأوربي" بـ : لجم الأقوياء، وإضعاف الآمال العالية، بالافتراء على السعادة التي تأتي من الجمال، إفساد كل ما هو متكبر رجولي، غازي ومسيطر ...تلك هي المهمة التي أمرت بها الكنيسة البوليسية والتي كان يجب أن تأمر بها، إلى أن يفرض نفسه بالنهاية- حسب نتشه- نظام قيم تندرج فيه أفكار التخلي عن العالم وإماتة الحواس والإنسان السامي"[11]، ولهذا سوف يغدو الدين- سماويا كان أو وضعيا – ضرب من الوهم الزائف، أو الخيال السقيم،لأن الشعور بالخطيئة هو الأساس الذي نشأ عليه، بل وحتى فكرة الأولوهية تصبح غير ذات معنى بالنسبة لنتشه، لأن " فكرة الإلوهية تمثل عقبة كؤود، توشك أن تلغي شخصية الإنسان، وتحول دون تأكيده لذاته" ويعود التاريخ كرته، فتظهر أخلاق السادة من جديد مع عصر النهضة الأوربية الذي تميز بالعودة إلى المثل العليا اليونانية، غير أن ذلك لم يعمر طويلا، إذا ستنتصر أخلاق العبيد من جديد مع حركة الإصلاح الديني، وهي حركة شعبية آثارها الضعفاء والعوام، وتعود أخلاق السادة عند نبلاء القرن 17 عشر و 18 عشر ليقهرهم العبيد مرة أخرى مع الثورة الفرنسية، التي كانت ثورة للعامة والدهماء، وتلوح أخلاق السادة من جديد على يد نابليون، ولكن دون أن يدوم ذلك طويلا إذ سرعان ما تعود أخلاق العبيد من بعده لتحتل الساحة، على أن كل الفترات التي تلت المسيحية، تتميز-في نظر نتشه – بأنها في أساسها فترات تسودها أخلاق العبيد، وما ظهرت أخلاق السادة فيها إلا عرضا لتختفي سريعا تاركة ورائها التيار الأصلي يسير في ضعف وانحلال، هكذا يظهر أن الفارق بين أخلاقية الأسياد وأخلاقية العبيد قائم منذ أزمنة سحيقة[12]، وهذا راجع في الأساس إلى أن هناك تصورات للقيمة نابعة من حياة فياضة، وأخرى تنبثق من الفاقة والبؤس، أي من المرضى والمهزومين والمعذبين، إنه في الوقت الذي تتجه فيه أخلاق السادة إلى السمو والطموح إلى ما هو أفضل، إلى إرادة الحياة وإرادة القوة، يرى العبيد في السيد الشّر بعينه، وبما أنهم يلمسون العجز في أنفسهم فإنهم يلجؤون إلى قلب الأسماء، وذلك بتسمية الأشياء عكس مسمياتها، فالشعور بالعجز يسميه العبد " صبرا"، وعجزه عن إدراك الطموحات يسميه تواضعا ...والعجز عن الانتقام يسميه عفوا، يقول الضعيف فاتر الهمة " إن الحياة لا تساوي شيئا " وخير له أن يقول " آني لا أساوي شيئا "، ومن هنا كانت أخلاق العبيد(أخلاق المسيحية)، تتنافى مع قوانين الطبيعة وقوانين التطور ،فالتطور والتقدم لا السائدة- أخلاق العبيد- هو إرادة الحياة وتحقيق " الإنسان الأعلى " الذي يثور على الأخلاق السائدة ويجسد في نظر نتشه المثل الأخلاقي في الأعلى.

1- الإنسان الأعلى:

---

[11] بدوي عبد الرحمان ،كانط فلسفة القانون والسياسة ، ص 261.

[12] شاتليه فرانسوا وآخرون ، معجم المؤلفات السياسية، ترجمة محمد عرب صاصيلا ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، 1997 ،ص1124

بما أن الإرادة العامة ليست هي إرادة الحياة، وإنما هي إرادة القوة، فإنه تصبح الغاية من القيم التي تضعها الإنسانية ليست أن توفر لها السعادة أو اللذة أو المنفعة، أو ما شابه هذه الغايات الهيّنة التافه...فإنه ينبغي على القيم التي تضعها أن تعمل على السمو بمستوى الإنسانية، حتى نصل إلى خلق نوع جديد، لا أقول من الإنسانية، وإنما ممن هم فوق الإنسانية، فالإنسان الحالي – في نظر نتشه- لا قيمة له في ذاته، وإنما قيمة فإنه وسيلة إلى خلق هذا النوع الممتاز، إن نتشه هنا لا يبحث عما يحفظ الإنسان إنما يكشف على لسان زارادشت أن همه " أن يعرف كيف يتفوق الإنسان على إنسانيته"، دونما اعتبار للخير أو الشر " لأن الشر قد أصبح خير ما في الإنسان من قوة، ولذلك فعلى المرء أن يزداد ارتقاء في خيره وفي شره، فإن أعظم شر، إنما هو أعظم خير للإنسان المتفوق"، إذا الغاية من الإنسانية هي خلق هذا الإنسان الأعلى، ومن أجل هذا كله لابد للقيم الجديدة التي نضعها أن تساعد على هكذا خلق، وأول خطوة تمهد لوضع هذه القيم هي أن يبدد الإنسان هذه الأوهام الثقيلة الخطيرة التي أتت بها المذاهب الأخلاقية والدينية والفلسفية " فإذا تحرر من هذه القيود كلها فليعتمد على نفسه"، والحرية معناها أن لا يأبه الإنسان للعناء، والقسوة والحرمان، بل والحياة نفسها، وأن تكون لغرائز الرجولة ،والنضال وحب الظفر، السيادة على الغرائز الأخرى مثل غريزة السعادة"، لكن كيف السبيل إلى هكذا إنسان؟

يرى نتشه أنه إذا أردنا أن نخلق الإنسان الأعلى فعلينا أن نشرف على التربية، ولا ندع الأمر فوضى للطبيعة، لأن طبيعة الحياة تعارض أفذاذ الرجال، وتميل إلى الفرد العادي... وتنتصر دائما للكثرة على الصفوة، من هنا فلا مجال في أن تختار لنا هذه الطبيعة الإنسان الأعلى وهنا يصبح الأمر حسب موكول إلى تحسين وسائل النسل والتعليم الذي يرفع من قيم الرجال، وعليه فأول خطوة في هذا الطريق هي مراقبة الزواج فيتزوج خير الرجال من خير النساء ، أما الحب فهو حسب نتشه متروك لحثالة الرجال، إذ ليس الغرض من الزواج مجرد النسل ، بل أيضا وسيلة للتطور والرقى، وبعد توفير حسن المولد، تكون الخطوة الثانية لصيانة الإنسان الأعلى هي التربية القاسية التي تأخذ على عاتقها تدريب التلاميذ على تحمل المسؤولية، دون أن ينعموا بالراحة، ودونما تساهل من شأنه أن يضعف القوة الجسدية والخلقية، كما يجب أن يخلو التعليم من كل مظاهر الزهد والتقشف واحتقار الجسد، هكذا فبمثل هذا المولد وهذه التربية يرتفع – حسب نتشه- الإنسان فوق الخير والشر،ولا يتردد في اللجوء إلى العنف والقسوة في سبيل الوصول إلى غايته، بحيث يكون حسب نتشه شجاعا، وليس صالحا أو خيرا، فما الخير سوى الشجاعة، أو هو كل ما يزيد الشعور بالقوة، بل هو القوة نفسها، أما الشر فهو كل ما ينشأ عن ضعف " هكذا يصبح ما يميز الإنسان الأعلى هو المخاطرة وحب الكفاح،" ولا يجوز له الركون والسعي إلى السلام، ولهذا تغدو كل الحروب خير من المنظار النتشوي، رغم تفاهة أسبابها في الأزمنة الحديثة، وحتى الثورة تصبح خير- ليس في حدّ ذاتها كونها تؤدي إلى حكم العامة- ولكن الثورة كفاح، والكفاح يبرز حسب نتشه عظمة الرجال، الذين لم تكن لهم من قبل الفرصة الكافية ، فمن فوضى كهذه يبرز أعظم الرجال كما برز نابليون من بين ركام وفوضى الثورة الفرنسية، إن الحيوية وعزة النفس هي التي تصنع الإنسان الأعلى، شريطة إيجاد الانسجام بينهما، فالإنسان الذي لا يريد أن يكون فردا من الجماهير يحتاج فقط أن يكف عن كونه متهاونا، ولينا

مع نفسه، وأن يتخذ لنفسه هدفا كبيرا شاقا على الآخرين، " هكذا فلن نحب الحياة ونسمو بها إلا إذا جعلنا هذا الإنسان هدفا لنا ومكافئة لأتعابنا".[13]

إن الطريق الأسهل للوصول إلى الإنسان الأعلى حسب نتشه هي الأرستقراطية، وليست الديمقراطية التي ما هي حسبه إلا استمرار للمسيحية، فلقد كان المسيحي الأول، في أعماق نفسه ثائرا على كل ضروب الامتياز، فقد عاش، وكافح من اجل المساواة بين الناس في الحقوق" ،إن المسيحية بهذا المنظور حربا مستقيمة على نموذج الإنسان المتفوق، وإفساد الغرائز الإنسانية، إنها أقوى ظاهرة في تضليل غرائز الإنسان الأوربي في تاريخ الفكر بخلقها- حسب نتشه- لعالم مثالي يعد انتقاصا من قيم العالم الأرضي الحقيقي، هكذا فمناهضة المسيحية تعتبر تبدلا في جميع القيم، هذا ما عبر عنه نتشه بقوله " إني أدعو المسيحية الكارثة الكبرى ، والإفساد الداخلي الكبير، والغريزة الكبرى الحاقدة "[14]...كما أدى غزو المسيحية لأوربا إلى القضاء على الأرستقراطية، كان اجتياح المحاربين " التيتون" ، فرصة لأحياء الفضائل الرجولية القديمة، لا لشيء إلا لأنهم لم يكونوا مثقلين بالأخلاق بل كانوا متحررين، من جميع القيود الاجتماعية، هؤلاء الرجال الجبابرة هم الذين ينشئون الدول، وهنا يرفض نتشه نظرية التعاقد، إذ ما فائدة التعاقد مع من خلق بطبعه ليكون سيدا وعنيفا قويا، لكن من سوء لكن لسئو الحظ أن هذه الفئة أفسدتها الفضائل الكاثوليكية ،والمبادئ الشعبية العامة، الناجمة عن الإصلاح الديني، والتزاوج مع الطبقات السفلى، من هنا تصبح الحرب أفضل علاج للشعوب التي دب فيها الضعف والترف والراحة والهوان ، لا لشيء إلا أنها تثير الغرائز التي أفسدها السلام، وهذا ما عبر عنه زارادشت بقوله " يجب أن تحب السلم كوسيلة لحرب جديدة .. وتحب السلم القصير أكثر ممن الطويل...لقد صنعت الحرب والشجاعة من عظائم الأمور أكثر مما صنعته محبة القريب"[15] من هنا فالبطل الذي يقهر نفسه، ويقهر الغير لا يطلب سعادته الشخصية، وإنما هو يخدم غاية تعلو عليه وهي إيجاد الإنسان الأعلى، إن الحرب ترياق لسموم تخنث النظم الديمقراطية التي ساهمت، حسب نتشه، في تتويج الفوضى والانحلال، وعبادة أواسط الناس ومقت التفوق، من خلال المساواة في الحقوق ،رغم أن طبيعة الإنسان فيما يرى نتشه، تأتي عليه المساواة " أما أولئك الذين يدعون إلى المساواة، فإنهم يدعون إليها من منطلق عجزهم عن أن يكونوا جبابرة طغاة"[16]، إن الحياة من هذا المنظور غلبة وحلبة صراع بحيث سيطر فيها القوي على الضعيف، القوي له الحق المقدس في الحكم ، والعامي (الضعيف) له مكانه ، لكن ليس العرش طبعا، والناس أينما وجدوا بعضهم خلقوا قادة !! وبعضهم أتباع ! وهكذا سترضخ الأكثر وتشعر بالسعادة تحت إشراف هؤلاء الزعماء الأقوياء هكذا يريد نتشه خلق الإنسان المتفوق على إنسانيته، بالمجاهدة والتغلب على العناصر والعادات والتقاليد، وما توارثته الأجيال من العقائد الموهنة للعزم، لكنه ما يلبث أن يقف موقف الحائر

---

[13] أويغن ، فلسفة نتشه ، ص 154

[14] المرجع نفسه ، ص 113

[15] ديورانت ويل ، قصة الفلسفة ،ص 534

[16] الجابري محمد عابد، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان، ط1 ، 1997، ص 48.

المتردد عندما يحاول إقامة مجتمع لأفراده المتفوقين فيلجأ في كثير من الأحيان إلى التخلي عن احتقاره للرحمة والرحماء، حتى ينتهي إلى القول : " إن العالم الذي يتفوق على الإنسانية، إنما يعود بعد هذا الجنوح إلى بذل حبه للصاغر والمستضعفين"[17] إن نتشه وبعد تفحصه لسرائر الإنسان، وأهوائه، يضيق أفقه عندما يجد نفسه أمام المعضلات الاجتماعية، لأنه إذا أمكن للفرد أن يخط لنفسه منهجا يوافق هواه، فإنه لا يستطيع إلا أن يكون عضوا حيا في المجموع بعلاقاته مع الآخرين .

إن مأزق الرؤية النتشوية يكمن في أنه كلف الطبيعة مالا تطيق، وجعل الحياة مستحيلة لأن الحياة لا تستطيع أن تحيى إلا على حساب حياة أخرى، لأن الحياة نمو، وهكذا فكأن الحياة إذا إرادة إستلاء وسيطرة على الأخريين، بل وحتى على نفسها، إذ لابد للإنسان أن يريد الزوال كي يستطيع أن ينشا من جديد، ومعنى هذا كله أن الحياة إرادة ، بل قوة أكثر فأكثر إنها حربا لا فضيلة ، تلك هي شرعية القيم الجديدة التي ستحل مع نتشه محل كل ما كان سائدا من قبل، وكلها صادرة عن فكرة تقديس القوة، لأنه رأي بأن إرادة القوة هي جوهر الوجود.

2 - إرادة القوة:

إن مبدأ الإرادة والقوة أو إرادة القوة، واعتباره سر الحياة والكون يمثل حجر الزاوية في فلسفة نتشه، ولما كانت إرادة القوة لا يمكن أن تظهر إلا بواسطة الكفاح فإنها تبحث دائما عن ما يقاومها، وربما هذا ما يفسر إعجابه بتجربة الحرب الألمانية الفرنسية(1870-1871)، إذ اكتشف وسط ما يصيب المحاربين من ويلات، وما يتعرضون له من أخطار أن الدافع لهم في صراعهم والغاية التي يستهدفونها من ورائه، تقوم أول ما تقوم على إرادة القوة " إن إرادة الحياة القوية السامية، لا تجد تعبيرا في صراع تعس من أجل الوجود، ولكنها تجده في إرادة الحرب، إرادة القوة، إرادة القوة العليا... وإلا فكيف يستطيعون- يقصد المحاربين- أن يحتملوا المسؤولية الرهيبة..لكي يرفعوا شعوبهم، وأنفسهم إلى مرتبة التسلط والسيطرة"[18]، غير أن هذا لا يعني اكتشاف نتشه لمبدأ إرادة القوة من تجربته هذه، بل الأمر مرتبط أكثر بتأثره بنظرية " شوبنهور" (1788-1860) ،عن الإرادة، إرادة الحياة، إرادة بلوغ حد أعلى من الحياة، إذ رأى شوبنهور أن " الإرادة هي جوهر الإنسان، بل وجوهر الحياة في جميع صورها ،" وهي التي تعطي عن طريقا غرضها الثابت، وحدة لمشاعر الإنسان ووعيه وترتبط جميع أفكاره بعضها ببعض في انسجام دائم مستمر"[19] وما رغبة الإنسان من هذا المنظور إلا تعبير عن الإرادة لا الذهن (العقل)، فهي السيدة وهو الخادم، ومن هنا كان من السير على نتشه في ضوء هذه الرؤية الفلسفية عن الإرادة أن يضع الأسس الخاصة لفلسفة الخاصة حول إرادة القوة ، فكل شيء حي حسب نتشه يحاول أن يزيد من قوته ،" إذ حيثما وجدت شيئا حيا، وجدت إرادة قوة، حتى في إرادة الخادم، هناك إرادة لكي يصبح سيدا، وليست

---

[17] فنك أويغن ، فلسفة نتشه ،ص 164

[18] كرم يوسف، تاريخ الفلسفة الحديثة،دار القلم، بيروت، لبنان [ب ت وط]،ص 410.

[19] ديورانت ويل ، قصة الفلسفة ،ص 545

الضرورة أو الرغبة، ولكن حب القوة هو شيطان البشرية"[20]، إن هذا المبدأ سوف يصبح مع نتشه، مقياس القيم الجديدة، بل حتى تحديد الطبقات والمستويات سوف يخضع لهذا المبدأ، " وليس شيء في الحياة ذو قيمة غير درجة القوة، إن القيمة هي أكبر مقدار من القوة، يستطيع الإنسان أن يحصل عليه،[21] وفي غمرة النشوة يحاول نتشه تعقب هذا المبدأ في كل ما عالجه من مواضيع وهو يقول في هذا " إن كل حيوان – بما في ذلك الإنسان– يسعى بغريزته إلى أقصى ما يستطيع تحقيقه من ظروف ملائمة، يتاح له في ظلها ، أن يسمح لكل قوته أن تعبر عن نفسها، وتبلغ منتهى الوعي بقوتها " ولا يتحدث نتشه هنا عن السعادة كغاية وإنما همه الوصول إلى القوة، إلى العمل، بل أقوى عمل، وهكذا فبمقدار شعورنا بالحياة والقوة يكون إدراكنا للوجود، ولعل هذا ما جعله يصدح عن فكرته المتطرفة " الضعفاء العجزة يجب أن يفنوا" ،إنّ الضعيف بالنسبة لنتشه، هو المضطرب العديد الوحدة، أما القوى فهو الذي " تتجه فيه كل القوى، متوترة نحو غاية موحدة، الضعيف هو رجل التساهل والمساومة، الذي ليس له قدرة على مقاومته الإغراء بل يصبح سلبي إزائه"، ولكن القوى هو الذي يقاوم الإغراء " لا ليبعده، بل لسيطر عليه ويخضعه لذاته "[22] وهو بهذا يزداد قوة ، لأن إرادة القوة اصطدمت بأكبر مقاومة وبالتالي شعرت بأعظم انتصار إن الضعيف من المنظور النتشوي يريد السلام والوفاق والحرية ، ويريد أن يحيا حياة المحافظة عل البقاء ، بينما القوي يفضل المخاطر، وعلى ذلك يكون شعاره " الحياة خطرة "، ولما كانت غايته الفوز فإنه يأبى كل شفة على المساكين، ويجد في الفوز غبطته الخاصة، هكذا اتخذ نتشه من هذا المبدأ مقياسا يحكم به على جوانب النشاط الإنساني ويطبقه عمليا في ميادين السياسة والأخلاق والدين ...ومن هنا جاءت صورة "السوبرمان" ممثلة لمبدأ إرادة القوة في السلم والحرب، في ضوء هذه الرؤية سوف يصبح السلم مقدمة للحرب– الحرب الباردة –مثلا، بل حتى الحرب تصبح جيدة عندما تجد لها المصوّغات الجيدة ، من هذه الرؤية الاستعلائية الممجدة للحرب والرافعة للواء القوة سوف يحاول نتشه إجراء نقد جذري للسياسة والأخلاق والدين، فالأخلاق السائدة آنذاك في أوروبا عموما وألمانيا خصوصا كانت حسب نتشه أخلاق اليهود " فاليهود وهم شعب " ولد للرق"– حسب تعبير نتشه– وهم الشعب المختار بين الأمم، كما يذكرون ذلك هم عن أنفسهم، قد حققوا معجزة قلبا القيم، التي بواسطتها اكتسبت الحياة على الأرض سحرا جديدا، وخطرا مدة ألفي عام... وفي هذا القلب للقيم، بدأت ثورة العبيد في الأخلاق، والتي استطاعت حسب نتشه أن تنتشر لأنها تخاطب في الإنسان غريزة القطيع، الأمر الذي وظفه أصحاب السلطة الدينية والسياسية في تثبيت حكمهم، ومن هنا جاء تثبيط العزائم، وضبط النزوع الاستقلالي، خشية زعزعت النظام القائم،هكذا فإذا كان نتشه يهاجم أخلاقيات العبيد، المثقلة حسبه بالخطيئة، والضعف، ووخز الضمير، فإنه يشيد بكل ما هو ارستقراطي، يدعو إلى القوة، ويعلي من شأن الامتياز والتفوق، وإزاء انتشار الدعوات الداعية إلى الديمقراطية والاشتراكية راح نتشه، يتمثل الخطر المحدق

---

[20] نتشه ، هكذا تكلم زارادشت، ترجمة ، فيلكس فارس ، منشورات المكتبة الأهلية ، بيروت ، لبنان [ت وط] ، ص 05.

[21] عبد المعز نصر محمد، في النظريات والنظم السياسية، ص 124

[22] ديورانت ول ، قصة الفلسفة ،ص 402

بالإنسان عموما، وأوربا خصوصا، فهو يرى في الديمقراطية شكلا منحطا من أشكال التنظيم السياسي، يحط من مواهب الإنسان وقيمته، كما يرى في الاشتراكية محاولة لخلق إنسان القطيع، الذي لا يحس مطلقا باستقلاله عن الجماعة، ووسط هذه المحنة التي عاشها نتشه من أعماق نفسه، من خلال إشفاقه على الإنسانية من السقوط، يعلن أن الخلاص لا يكون إلا عن طريق فلاسفة جدد، يقودون، ويضعون القوانين"'إن الفيلسوف بوصفه كذلك، يكف عن الطاعة، ويستبدل الحكمة القيمة، بالقيادة، ويحط القيم القديمة ويخلق قيما جديدة.

هكذا يبدو مفهوم إرادة القوة عند نتشه مفهوما مليء بالإيحاءات، يصل إلى حد الغموض عندما لا يعترف إلا بالقوة كغائية نهائية للإنسان، وهذا الأمر بالخطورة بما كان، فمشكلة الأخلاق بالنسبة له، إنما هي في الأساس مشكلة الحقيقة والتطابق مع إرادة القوة بوصفها جوهر الحياة.

الواقع أن عبادة القوة على نحو ما دعا إليه نتشه وبعض دعاة النزعة الحربية ليست سوى تعبير عن عجزها عن استبقاء مثلنا العليا صامدة وجها لوجه، أمام هذا العالم المعادي لها، وكأننا هنا بإزاء صورة جديدة من صور الإذعان للشر والتضحية بالخير ، لأن القوة بلا فكرة قوة عمياء تجري سريعا إلى حتفها، لأنها تبدد طاقاتها وإمكاناتها بعدم استخدامهما ، وتوزيعها بحكمة وتدبير.

لكن إذا كانت علاقة القوى هي الأساس الرئيسي الذي تقوم عليه العلاقات بين الدول اليوم كما في الماضي، وعندما نعلم أن منطق الحرب وهو المتحكم في تغيير علاقات القوي بين الدول ندرك الخطر المحدق بالإنسانية من جراء الأنانية المفرطة، وعدم الاعتراف بأي قانون أخلاقي في المسائل السياسية، على اعتبارات أن هذه الأخيرة لعبة يسمح فيها باستعمال كل الوسائل دونما أدنى اعتبار لخصائص هذه الوسائل، يحق لنا التساؤل عن علاقة السياسة بالأخلاق على المستوى الدولي، وهل بالإمكان تصور مستقبل مشرق للإنسانية، بحيث تحترم حقوق الدول ومعها حقوق الإنسان ؟

ثالثا: الخاتمة:

إن نظرة نيتشه إلي كانط هي نظرة مزدوجة فهو من جهة، يشير إلي منزلته العظيمة، ومن جهة أخري، هو يزدريه. وإذا عدنا إلي التقدير الأول، وهو تقدير ايجابي، نجد أن لكانط في نظر نيتشه، أهمية استثنائية؛ لأنه قدم خدمة لا تقدر للفكر عندما بين الوهم، الذي هو في قلب الفلسفة السابقة عليه، عندما قام في مشروعه بإيقاظ العقل من نومه ، وساعده علي الانتصار علي التفاؤل النظري، و كان أول من قدم تحديا جذريا لتفاؤل الحضارة الغربية ومعتقداته، الميتافيزيقية، والإلهية.

أما نظرة الازدراء فتتمثل في رفض نيتشه النقد الكانطي ، ورفضه ، أيضا ، الأخلاق الكانطية التي تمثل احدي المرجعيات الكبرى للأخلاق الفلسفية في العصر الحديث ، ويعتبرها هي الأخرى زائفة وسلبية ، ويتجه نيتشه في نقده للأخلاق الكانطية ، أول ما يتجه، إلي فحص أساسها ، ونعني به ''الآمر المطلق'' ،أو : الآمر

القطعي " الذي يقول عنه في كتابه " العلم المرح " : " وها انتم أولاء تعجبون بالآمر المطلق في داخلكم ، وبمتانة حكمكم الأخلاقي المزعوم هذا ؟ وبـ" مطلقيه الإحساس بأنه في هذا يجب علي الآخرين أن يحكموا مثلي أنا " إنه لمن الأنانية حقا أن يشعر الواحد بحكمه الخاص كقانون كوني ، وأنها الأنانية عمياء خسيسة لأنها تكشف انك لم تجد نفسك بعد ؛ وانك لم تخلق لنفسك مثلا شخصيا محضا ... أن الذي لا يزال يحكم بأنه " في الحالة كذا يجب علي كل واحد أن يفعل كذا "هو إنسان لم يتقدم في معرفة ذاته ولو قليلا ، وإلا فانه كان سيعرف انه ليس هناك ، ولا يمكن أن تكون هناك أفعال متطابقة أبدا ـ إن كل فعل قد تم بطريقة فريدة ولا يمكن الاهتداء إليه ثانية ، وسينطبق نفس الشيء علي كل فعل مقبل، إن تأكيد كانط علي أن ما يكون مقبولا أخلاقيا هو ما يكون مقبولا للجميع هو زيف أو خطأ؛ لأنه ، بالنسبة لنيتشه ، لا يمكن أن توجد أخلاق مطلقة إلا إذا كان البشر من طبيعة واحدة ، وهذا شيء غير صحيح ،والحقيقة انه وراء الآمر المطلق تختبئ ، في نظر نيتشه ، " ديكتاتورية أخلاقية " ، وتختبئ رغبة كانط في تحويل البشر إلي قطيع ، وتدجينهم . وبعبارة أخري ، يدخل الآمر المطلق ضمن مجال الطاعة العسكرية ، وكانط لا يبحث من خلاله إلا علي ممارسة قوته وخياله المبدع علي حساب الإنسانية ،هذا ويمتد نقد نيتشه إلي عنصر أخر من عناصر فلسفة كانط الأخلاقية ؛ ونعني به قيمة العمل الأخلاقي . فلقد كان كانط ، في نظر نيتشه مسئولا عن انقلاب خطير في القيم الأخلاقية عن طريق تحويله للقيمة الأساسية للعمل من نتائجه إلي أسبابه ؛ أي تحويل قيمة العمل إلي قيمة النية . يقول نيتشه : "خلال أطول مرحلة في التاريخ الإنساني ، أي مرحلة ما قبل التاريخ ، كانت قيمة ـ أو عدم قيمة ـ عمل تأتي من نتائج هذا العمل ... وكانت تلك هي الفضيلة ، فضيلة النجاح أو الفشل التي تجعل الناس يحكمون علي عمل ما بالجودة أو بالرداءة ... ولكن ، ودفعة واحدة ، بدت تباشير سيطرة خرافة جديدة وقاتلة ، سيطرة تأويل ضيق تشرق في الأفق : أن اصل العمل نسب إلي النية التي كان ينبثق عنها ، واتفق علي أن قيمة العمل تكمن في قيمة النية . وهكذا صارت النية تشمل سبب العمل وما قبل تاريخه"ويستطرد نيتشه ، زاعما انه فضح حقيقة النية ، قائلا " نظن اليوم ، نحن اللاأخلاقيين ، أن القيمة الأساسية لعمل ما تكمن خارج النية تحديدا.

إن التنوير الكانطي الذي يتعلق بتربية الإنسان يتعارض إذن ، في نظر نيتشه ، مع هدف التربية الحقيقي ؛ الذي هو تكوين الإنسان الممتاز أو التحضير له . وتكفي نظرة واحدة علي نوع الإنسان الذي تهدف إليه التربية عند كانط للتأكد من أن هذا الأخير قد اخطأ هدف التنوير الحقيقي : فكانط يتصور أن الإنسان متوحش ، وطابع التوحش هذا هو خاصية الاستقلال عن أي قانون ، وهو كذلك خاصية الشطط في استعمال الحرية . ففي حالة التوحش تسود الحرية والاستقلال عن أي قانون، إن الرضيع، مثلا، لا يطيع إلا ميوله الحيوانية، ولا يخضع كذلك إلا لنزواته: إنه يسود مستبد بالآخرين. ويظهر الاستبداد عنده باعتباره حالة طبيعية للإنسان، انه تعبير فوري عن إرادة لا تخضع لأي قانون ،وهذا ما يسميه كانط " حيوانيته " أو " وحشيته " . وعليه ، فلكي يصير الإنسان إنسانا فانه يجب أن يفقد وحشيته ، ويصير كائنا أخلاقيا ، وهو ما يقتضي إخضاعه لعملية ترويض مؤقتة، تكون هي الخطوة الأولي في تربيته ،هذا وإذا كان كانط يقصد من الترويض " انسنة الوحش الذي هو

الإنسان، فان نيتشه يري ، علي العكس من ذلك ، أن الإنسان المتوحش ، أو الوحش الأشقر الكاسر ، هو بمعني ما ، المثل الاعلي للجنس البشري أو الإنساني ، وانه بسبب الخوف من هذا الإنسان ـ الوحش ، تم ترويض وتحقيق النوع المعاكس أو المخالف ، أي " الحيوان المد جن " ، " والحيوان التجمعي " ، و " الحيوان الضعيف " ، و" حيوان الحقوق المتساوية " ، و " الحيوان المسيحي أو الكانطي "[23].

من هذا التشخيص لطبيعة الإنسان ينطلق نيتشه إلي تحليل نظرية الدولة أو القانون الدولي ، ونقد فكرة " السلام الدائم " عند كانط . لقد كانط الغاية من " السياسة الكبرى " عند نيتشه هي ـبالضرورة ـ توحيد أوروبا سياسيا . ومع هذا لم يكن يتصور قط أن يجري هذا التوحيد علي أساس اتفاق بالتراضي بين الدول ، بل هو يستخلصها من الصراع ، أو من أعظم الحروب وأشدها هولا ، وبعبارة أخري ، لا يمكن أن يتحقق" توحيد أوروبا" ، في نظر نيتشه ، إلا بالرجوع إلي الهمجية ، هذا ، وتوحيد أوروبا لا ينفصل ، عنده ، عن تجديدها . فقبل أن تتوحد أوروبا يجب أن تجدد نفسها ، لان أوروبا اليوم (القرن التاسع عشر) بالغة التعب ، لا نتيجة للحروب ، بل من جراء الشبع والسلام . أن هذا هو السبب الرئيسي في انحطاط الأمم الأوربية وتدهور العروق "المتفوقة " (أو"تدهور الإنسان ـ المتوحش" إلي " الإنسان ـ الممدن ") التي كانت تسود القارة الأوربية فيما مضي من الزمان ،لقد كانت هذه العروق المتوحشة تتضرس في الحروب وفي النضال وفي النزاع ، ولكنها ابتعدت عن نمطها منتجة عددا كيرا من الاضطرابات والتشوهات عندما آلت إلي الإفراط في تحصيل الغذاء والجنوح إلي السلام.

إن الحرب ، بالنسبة إلي نيتشه ، هي وحدها تخلق عظمة الشعب وتضمن تطور الحياة الصاعدة ، وترد للشعوب المتعبة تلك الطاقة الصلبة التي تجدد بها نفسها، وهذا معناه أن الحضارة لا تستطيع بتاتا أن تستغني عن الأعمال الوحشية ، وان كل رأي يمنح السلام قيمة هي أعظم مما يمنح للحرب مناهض للحياة :" أن الحياة نتيجة الحرب ، والمجتمع نفسه وسيلة لها .

إن نيتشه يسخر من كانط الذي رسم خطة لتحقيق السلام الدائم علي الأرض بواسطة هيئة أو عصبة تكون حكما في جميع قضايا الخلاف لتجعل من المستحيل علي المتنازعين أن يلجأوا إلي الحرب لإقرار تلك القضايا ، ويرد علي خطته أو مشروعه بالدفاع عن الحرب ، بقوله :" أحبوا السلام كوسيلة لتجديد الحروب ، وخير السلام ما قصرت مدته . إنني لا أشير عليكم بالسلم ، بل بالظفر ، فليكن عملكم كفاحا وليكن سلمكم ظفرا، لا اطمئنان في الراحة إذا لم تكن السهام مسددة علي أقواسها، وما راحة الأعزل إلا مدعاة للثرثرة والجدال، فليكن سلمكم ظفرا، تقولون أن الغاية المثلي تبرر الحرب، أما أنا فأقول لكم أن الحرب المثلي تبرر كل غاية ، فقد أتت الحروب والإقدام بعظائم لم تأت بمثلها محبة الناس ، وما أنقذ الضحايا حتى الآن إلا أقدامكم لا إشفاقكم.

---

[23] المصدر الأسبق، ص 125

إن نيتشه لا يأسف للحرب ولا يقابلها مثل كانط بمشروعات سلام دائم ؛ لأن الحرب هي وحدها القادرة، في نظره، علي إقامة ''العدالة''، [24] وذلك راجع إلى أن العلاقات بين الدول لا يحكمها قانون العقل بل الاتفاق، والعرضية ،وهذا يعني أن الدول في مواجهتها بعضها لبعض هي في حالة الطبيعة، ولا تكون علاقاتها شرعية أو قانونية أو أخلاقية. فالحرب بين القوي هو القاعدة، وأما التصالح أو السلم الذي نلحظه بينها ، في بعض الأحيان، فليس إلا تصالحا مؤقتا بين إرادات أو قوي متساوية، تظل تترقب وتتربص التوثب علي غيرها عندما تتاح لها ادني فرصة ، فالعقود والعهود التي هي أساس القانون الدولي لا تعبر ، عند نيتشه، إلا عن حالة مؤقتة لإرادة القوي . وبعبارة أخري، فان الإلزام الذي ينشأ عن المعاهدة والعقد ليس إلزاما أخلاقيا وإنما هو إلزام حرص وفطنة؛ أي مشروط بالضرورة التاريخية أو الوضع القائم . ولهذه الأسباب فانه يمكن للدولة أن تخرق المعاهدات، بل أن تغزو الدول الأخرى، دون أن تتوقع عقوبة مبررة، إذ لا توجد سلطة يمكن أن تنفذ هذه العقوبة . وتلك النقطة المحورية في نقد نيتشه لفكرة كانط عن ''السلام الدائم'' [25] .

---

[24] بدوي عبد الرحمان، الموسوعة الفلسفية ج 2، ص 514

[25] المرجع نفسه ،ص،515